الطاعة . الوجه الآخر للعنف *

د . عبد السميع سيد أحمد **

إذا طلب من أحدنا أن يقوم بعمل بالغ القسوة ضد شخص آخر لا صلة لنا به ، فهل يمكن أن نقبل ؟ لماذا نرفض ، وتحت أية ظروف يمكن أن نقبل ؟ .

طبعاً إذا قلنا أننا نرفض فذلك راجع إلى أننا أناس " عاديون " لا نحمل تطرفاً فى العدوانية من نوع ما . وما دام الأمر كذلك فنحن نتصرف طبقا لمبدأ مترسخ فينا " لا تعتدى على من لم يسبب لك ضرراً " ، وهذا المبدأ موجود فى كل الثقافات وكل الشرائع ، مع ذلك فإن العالم ملىء بالناس " العاديين " من أمثالنا الذين قاموا بقتل وتشويه الآلاف من البشر ، بمجرد الضغط على زر فى طائرة حديثة ، دون أن يشعروا أنهم قد اقترفوا خطأ ما ، وبدلاً من أن تؤرقهم ضمائرهم يعتريهم شعور بالفخر لكفاءتهم فى أداء المهمة .

ربما نقول أن ذلك يحدث فى حالة الحرب ، والعمل فى مثل تلك الحالة مطوى فى حماس الوطنية والعزة والدفاع المشروع عن النفس ... ، وسائر القيم " الرفيعة " . والأكثر من هذا ، تخفيفا لهول الفعل ، أن مثل ذلك الطيار لا يرى حجم الدمار والفزع والدماء الذى يحدث بمجرد ضغطه على زر . إن ما يحدث شىء (لا شخصى) ، وبالتالى لا تصحبه ظلال من المشاعر الانسانية .

لكن هناك بشر قاموا على مر التاريخ ، وغيرهم ما زالوا يقومون الآن ، بعمل مذابح جماعية لغيرهم من البشر أمثالهم ، فهل نعتبرهم أصحاب نزعة سادية ؟ أم هم أيضا بشر عاديون لكنهم يتصرفون فى إطار ظروف خاصة ؟

ذلك هو الموضوع الذى استثار اهتمام عالم النفس الاجتماعى ميلجرام (Milgram) ، فراح يبحثه فى عمق وبأسلوب علمى محكم ، ليقدم لنا نتائج تسترعى الدهشة والانتباه .

---

* عرض وتعليق على كتاب :

Milgram,S.,Obedience to Authority, Herper & Row Publishers, N.y.,1974

** أستاذ أصول التربية بكلية التربية بجامعة عين شمس .

والباحث حاصل على درجة الدكتوراه من جامعة هارفارد ، وأجرى بحثه أثناء عمله كأستاذ مساعد فى جامعة يل (Yale) ، وهى تنافس هارفارد فى مستواها ، وحصل بحثه على الجائزة السنوية للرابطة الأمريكية لتقدم العلوم ، وتمت ترجمة بحثه إلى الالمانية والايطالية والاسبانية والعبرية ، لكنه لم يترجم إلى العربية . وربما كان هذا مدعاة لتقديم عرض له ، استثارة للرغبة فى ترجمته ، أو على الأقل للاطلاع عليه .

الطاعة مفتاح العنف

ينبهنا الباحث إلى حقيقة بسيطة ، وهى أن الطاعة موجودة فى كل مكان ، نشاهدها ونمارسها فى كل وقت . ولأنها منتشرة بهذا الشكل فنحن لا نلحظ أنها موضوع يستحق الدراسة ، وننغفل عن دورها الهام فى تشكيل السلوك الانسانى . ومن ثم يبقى جانب كبير من سلوك الفرد مستعصيا على الفهم ، ذلك السلوك الذى يتم تنفيذه بالأمر ، والذى يختلف اختلافا بينا عن السلوك التلقائى . كذلك يعوقنا تجاهلنا لدور الطاعة عن فهم جانب كبير من سلوك المجتمعات ، لأن الطاعة عنصر أساسى فى بنية الحياة الاجتماعية ، مادام كل بناء اجتماعى يعتمد فى تكوينه الهرمى على السلطة التى تصدر الأوامر وتضطر الناس إلى الطاعة . وإذا كنا نقف مشدوهين أمام أفعال الانسان العنيفة ، فإن أحد المفاتيح الأساسية لفهم طاقة العنف هو الطاعة . إنها تفسر غرف الغاز ، ومعسكرات الموت ، وقدرة الانسان على انتاج " جثث " بنفس الكفاءة التى ينتج بها الأجهزة المنزلية .

تلك سياسات لا إنسانية ربما كانت مغروسة فى عقل شخص واحد ، ولكن تم تنفيذها على نطاق واسع لأنه كان هناك دائماً من هوعلى استعداد لطاعة الأوامر. وهذا هو السر وراء سلبية بعض الشعوب مهما حاق بها من ظلم ، إنهم لا يثورون لأنهم يعلمون أن هناك قطاعا آخر من المواطنين على استعداد لتدميرهم إن تلقوا الأوامر بذلك . وتحسب لهم الطاعة فضيلة فى تلك الحالة ، لأنها تعبير عن الاخلاص والولاء .

من أجل هذا تستحق الطاعة الدراسة باعتبارها الوجه الآخر للعنف .

المنهج

يبشر الباحث بالبساطة كمدخل للبحث العلمى الفعال ، ويعتبر ذلك شيئا صادقا بوجه خاص إن كان الموضوع ذا محتوى نفسى ،لأن الحدث النفسى بطبيعته تصعب السيطرة عليه والتعامل معه ، وهو يحمل فى طياته جوانب أكثر مما يبدوعليه ظاهره . ولدراسة الطاعة بأكثر الأساليب بساطة علينا أن نهيىء وضعاً يأمر فيه شخص شخصاً

آخر لكى يقوم بعمل يمكن ملاحظته وقياسه والتحكم فى الظروف التى تحيط به ، حيث يمكن أن نضع الطاعة فى مواجهة عامل قوى آخر يشكل ظروف العصيان .

على هذا الأساس كانت " الحيلة الذهنية " التى أراد الباحث وضعها موضع التنفيذ ، أن يأتى شخص ما إلى معمل علم النفس ، فيتلقى أمراً بأن يسلك ضد شخص آخر بطريقة فيها شىء من القسوة ، ثم تتزايد حدة القسوة بالتدريج إلى درجة كبيرة ، ومع تزايدها تتزايد الرغبة فى عصيان الأمر ، لأن الطاعة هنا يواجهها مبدأ " لا تؤذى انسانا بلا حول ولا قوة لم يسبب لك أى ضرر " . وعند نقطة معينة ، من المتوقع أن يتوقف الشخص عن الطاعة ، وينسحب من التجربة .

لكن عند أية نقطة يرفض الناس ممارسة العنف بالأمر ؟

أى ، عند أية نقطة نفقد الميل الكامن فينا للانصياع ؟

تحتاج الاجابة إلى تصميم تجريبى خاص ، وكان التصميم الذى وضعه الباحث بسيطا . بالنسبة للأداة استعان الباحث بجهاز يبدو من هيئته أنه مولد كهربائى ، يشتمل لوحة تحتوى ٣٠ مفتاحاً متدرجا فى قوته ، من ١٥ إلى ٤٥٠ فولت . وكتب بالحروف على كل مجموعة من المفاتيح مدى شدة الصدمة الكهربائية التى يمكن أن تولدها ، وهى تتدرج من خفيفة إلى خطرة ، إلى حادة ، إلى المفتاحين الأخيرين وكتب عليهما بالرموز علامة (× × ×) كدليل على شدة الخطورة ومع الضغط على كل مفتاح تظهر مجموعة من الأضواء ، ويتأرجح مؤشر ، ويصدر أزير . والجهاز مسجل عليه اسم الشركة ، ومكان الانتاج ، والموديل ، والمخرجات الكهربائية .

كل ذلك للايهام بأن الجهاز جهاز حقيقى ، وأن ما يصدر منه يسبب ألماً بالغاً .

أما بالنسبة لاجراءات التجربة فقد استعان الباحث بمساعدين دربهم تدريبا جيدا ، منهم من يقوم بدور المجرب ، ومنهم من يقوم بدور المفحوص . وتم الاعلان عن الحاجة إلى متطوعين لقاء مكافأة مالية ليشاركوا فى التجربة . وقبل العمل فى التجربة أكثر من ألف شخص ، ما بين معلمين فى المدارس العليا ، واشخاص حاصلين على درجة الدكتوراه ، وعمال مهرة وغير مهرة ، وموظفين ، وأصحاب اعمال مهرة ، وهم جميعاً يتوزعون على فئات عمرية بين العشرينات ، والثلاثينات ، والأربعينات .

وحين يأتى المتطوع إلى المعمل مكان التجربة ، يقابله الشخص المكلف بالقيام بدور المجرب ، وكذلك الشخص الذى يقوم بدور المفحوص – بينما المفحوص فى حقيقة الأمر هو المتطوع ذاته الذى ستطبق عليه التجربة – ويعطى المجرب تعليماته لكليهما باعتبارهما متطوعين ، ويوضح لهما أن علم النفس يهدف إلى تبين تأثير العقاب على التعلم ، لأن هناك نقصاً فى المعرفة فى هذا الخصوص ، والتجربة تهدف إلى تحديد كم

العقاب اللازم للتعلم الجيد . ثم يطلب المجرب منهما أن يقترعا على من يقوم بدور المعلم ومن يقوم بدور المتعلم فى التجربة . ويقدم للمتطوع ورقتين مطويتين ليسحب أحدهما ويعرف دوره ، وفى الواقع أن كلا الورقتين مكتوب فيهما " معلم " . وهكذا يأخذ المتطوع دوره كمعلم ، ويأخذ مساعد الباحث دور المتعلم الذى تم تدريبه عليه .

يشرح المجرب الدور الذى سيقوم به كل من العلم والمتعلم . على المعلم أن يقرأ على المتعلم سلسلة من الكلمات المزدوجة ، وحين ينتهى من قراءتها يعود إلى قراءة الكلمة الأولى ويطلب من المتعلم أن يذكر الكلمة المزاوجة لها . وسلسلة الكلمات مثل يوم جميل ، بطة برية ، صندوق أزرق ، وحين يقرأ المعلم مثلاً كلمة جميل ويذكر المتعلم أن الكلمة المزاوجة لها " وجه " بدلاً من يوم ، يوجه المعلم إليه صدمة كهربائية ، ومع كل خطأ – متعمد بطبيعة الحال – تزداد قوة الصدمة . ولتأكيد جدية الموضوع يعطى المجرب عينة من الصدمات من ٤٥ فولت ليختبر تأثير الصدمات على المستوى الخفيف ، وليكون فى قدرته توقع تأثير الصدمات الأخرى الأكثر قوة على المتعلم . ويؤكد المجرب للمعلم أن الصدمات لا تسبب أى اضرار دائمة بالجلد ، كما يؤكد عليه ضرورة الاستمرار فى اداء التجربة إلى نهايتها مهما كانت الصدمات قاسية على المتعلم ، حتى إذا وصل إلى درجة ٤٥ فولت ، فإن عليه أن يعطى المتعلم الصدمة مرتين ثم يتوقف بعد ذلك .

يقوم المتعلم ليجلس على كرسى ، وتوثق يداه بحيث لا يستطيع مغادرة مكانه ، وتوصل الأسلاك الكهربائية بيديه . ويجلس المعلم فى حجرة أخرى ملاصقة دون أن تكون له صلة مع المتعلم إلا عن طريق الجهاز . ويعرف المعلم الاجابة الصحيحة أو الخاطئة عن طريق الأضواء التى تظهر بأعلى الجهاز حين يضغط المتعلم على مفتاح من الغرفة الأخرى ، أى أن الاجابات تأتى بالاشارات الضوئية لا بالصوت .

وتبدأ التجربة

يظل المعلم " البريء " يعطى صدماته للمتعلم كلما أخطأ وليس ثمة صعوبة تذكر فى العملية . لكن تبدأ المشكلة عند الڤولت ٧٥ ، هنا يبدأ المتعلم فى التأوه والتوجع – وهو لا يشعر بشيء طبعاً – ثم يبدأ فى الشكوى عند الڤولت ١٢٠ ، وحين تصل الصدمة إلى الڤولت ١٥٠ يصرخ المتعلم صراخا حادا ويطلب أن تفك قيوده ويترك التجربة ، ثم يحتج بانفعال وبطريقة عدائية إلى أن يصل إلى الڤولت ٢٨٥ ، هنا يبدأ فى اصدار صرخات منتظمة ، ثم يتوقف عن اصدار أية أصوات أو اشارات فى فترات مختلفة ، حتى يبدو وكأنه فقد الوعى أو حدث له مكروه .

ماذا تكون حالة المعلم ؟

إنه يشعر بالتردد فى الاستمرار فى التجربة ، وتجيء لحظات ، تختلف من شخص لآخر ، يحاول فيها القيام والانصراف عن التجربة ، خاصة حين يذكر المتعلم أن

قلبه ضعيف ولا يتحمل الصدمات ، أو حين يكف المتعلم عن أى استجابة .لكن المجرب يوجه المعلم دائما بصوت حازم فى أدب :

– من فضلك استمر

– التجربة تتطلب أن تستمر

– من الضرورى للغاية أن تستمر

– ليس أمالك خيار آخر – يجب أن تستمر

– تلك التعليمات مصممة على أن تتناسب ومدى تردد المعلم ، وتستخدم تعليمات أخرى إن لم تفلح تلك الاستطرادات الحاسمة ،ذلك قبل أن تجىء لحظة عصيان الأوامر والانسحاب من التجربة . ومع الاقرار بحقيقة أن كثيرا من المفحوصين كانوا يشعرون بالضيق ، وأن كثيرا منهم احتج على المجرب ، إلا أن نسبة لا بأس بها استمرت فى التجربة حتى آخر صدمة ، بصرف النظر عن توسلات المتعلم وتعبيره عن ألمه الشديد .

وتفسير الاستمرار إلى آخر درجة فى التجربة باجراءاتها هذه سهل ، وهو أن المفحوص يتعامل مع شخص آخر لا يراه ، وإن كان يسمع صوته . وهو فى مثل تلك الحالة لا يتأثر به باعتباره كائناً بشريا حقيقياً بنفس الدرجة التى يمكن أن تحدث لو أنه يتعامل معه مباشرة . لهذا قام الباحث بتغييرات فى اجراءات التجربة لتشتمل أكبر عدد ممكن من المواقف .

أجريت تجارب يكون فيها المعلم مع المتعلم فى نفس الغرفة . وتجارب يقوم المعلم فيها بوضع السلك الكهربائى بنفسه على يد المتعلم كلما أخطأ ليعطيه الصدمة الكهربائية . وتجارب يترك فيها المجرب الغرفة ليوجه تعليماته إلى المعلم بالتليفون . وتجارب يقوم بدور المعلم فيها أكثر من شخص فى وقت واحد . وتجارب يشترك فيها أكثر من مجرب . وتجارب لا يوجه فيها المعلم الصدمة بنفسه بل يوجهها رفاق آخرون ، وتلك الاجراءات وغيرها كانت محاولة لحصر المتغيرات التى يمكن أن تؤثر على المفحوص ، فتجعله يطيع السلطة المتمثلة فى المجرب ، وحصر العوامل التى تساعد على التمرد والعصيان بالتوقف عن الاستمرار فى التجربة . فماذا كانت النتائج ؟

تحليل نتائج التجربة

يقول البحث أن اتهام شخص مثل " ايخمان " ، نجم التعذيب فى المانيا النازية ، بأنه شخص سادى اتهام خاطىء تماما . إنه أقرب إلى أن يكون بيروقراطى الشخصية محروما من الخيال . هو موظف كبير يجلس على مكتبه ويمارس عمله ببساطة ، وتأخذ الأوامر التى يصدرها – بناء على الأوامر التى يتلقاها – مسارها فى تسلسل طبيعى إلى آخر موظف ، ذلك الذى يقوم بالتعذيب الفعلى للبشر . وفى وسع أى منا أن يرفض مثل

هذه النظرية لشخصيته ، كما أنه فى وسع أى منا أن يرفض من بعيد أن يقوم بالدور الذى قام به المعلمون فى التجربة الحالية . نحن قد نظن أننا عند أول بادرة لاحساسنا بأن الطرف الآخر فى التجربة يشعر بالألم ، فإن استجابتنا الفورية ستكون التوقف عن مواصلة لتجربة والانسحاب منها كلية . هذا التوقع شىء طبيعى ومأخوذ فى الحسبان ، إذ قام الباحث بالقاء محاضرة شرح فيها تجربته بتفصيلاتها ، وطلب من الحاضرين أن يعطوه توقعاتهم عن استجاباتهم للتجربة . وكان جمهور المحاضرة يتألف من ثلاث فئات : مجموعة من المحللين النفسانيين ، مجموعة من طلاب الجامعة ، مجموعة من أصحاب المهن من أبناء الطبقة الوسطى . وتوقع كل من الحاضرين أنه لن يستمر عند نقطة معينة نتيجة لشعوره بالتعاطف والرحمة ورفض الظلم . ذلك التوقع مرجعه – فى نظر الباحث – أن الناس يحبون أن يروا أنفسهم فى صورة مثالية ، عادلين أبرار . وتلك الصورة أسقطها الحاضرون على غيرهم من الناس ، فحين سألوا عن توقعاتهم لاستجابات الآخرين الذين يتطوعون للقيام بالتجربة ، قالوا أنهم سوف يرفضون الخضوع للأوامر ، فيما عدا المصابين منهم بأمراض نفسية واضحة . وقال المحللون أنهم يتنبأون بأن معظم المتطوعين سوف ينسحبون بعد الڤولت ١٥٠ الذى يطلب فيه الضحية المتعلم أن يخلى سبيله ويترك التجربة .

لكن النتائج كانت مخالفة للتوقعات .

كانت نسبة من استمر فى التجربة بعد الڤولت ١٥٠ كبيرة ، ووصل البعض إلى نهاية التجربة عند الڤولت ٤٥٠ على خلاف توقعات من سألهم الباحث ، وعلى خلاف ما يتوقع الناس " العاديون " .

فلماذا كانت النتائج مخالفة للتوقعات ؟

يرجع ذلك إلى أن الناس الذين يعيشون حياتهم اليومية دون أن يحملوا عداء مريراً لأحد ، يمكن أن يصيروا قوى مدمرة فى يد بعض المؤسسات أو التنظيمات أوالأفراد . والأكثر من هذا أنهم حين يتبينون بوضوح تأثير أعمالهم على غيرهم ، فإنهم يمكن أن يستمروا فى المواصلة بما لا يتفق مع معاييرهم الاخلاقية ، ولا تملك إلا نسبة قليلة منهم القدرة اللازمة لمقاومة السلطة . هنا تلعب مجموعة من انواع الكف ضد العصيان دورها ، بحيث يبقى المرء فى وضعه مجبرا على الطاعة .

وكثير من الذين يقعون فى أيدى القوى المدمرة يشعرون شعورا قويا بالمتطلبات الخلقية للاحجام عن اتيان افعال تسبب ضررا لضحية بريئة . لكن تلك القيم ليست هى العامل الوحيد المتحكم فى السلوك فى مثل تلك المواقف ، وإنما هى عامل واحد فى شبكة أخرى من العوامل التى تضغط على الشخص وتوجه سلوكه ، وتجعله يسلك بطريقة معينة ، حتى إن لم يوافقه ضميره على ذلك . إن ما يحتل مكانة عالية فى النسق

الخلقى ، لا يحتل بالضرورة مكانة مشابهة فى البنية النفسية للانسان !!

لقد بقى كثير من الأشخاص على طاعتهم للمجرب ، لماذا ؟

هناك مجموعة من العوامل التى تربط الشخص بالموقف : عامل الأدب من جانب المفحوص ، والرغبة فى البقاء على وعده المبدئى بمساعدة المجرب ، والشعور بالحرج من القيام بالانسحاب . تلك عوامل قد تبدو بسيطة ، لكنها فى الحقيقة عوامل قهر نفسى . نحن مكلفون أن نكون " مؤدبين " ، كارهين ، فقط تجنبا للإحراج ؟!

ثم يقوم المفحوص إلى جانب هذا بمجموعة من عمليات التكيف التى تساعد على ضغط علاقته بالمجرب ، وتخفف الضغط الذى يعانيه فى عملية الصراع بين الاستمرار والانسحاب . تلك العمليات تطابق ما يحدث لدى الأفراد الطائعين الذين يكلفون بالقيام بالاعتداء على آخرين عاجزين .

آليات الطاعة

محدودية النظرة الانسانية : يميل الفرد عادة إلى أن يحدد نفسه فى جوانب معينة من الموقف الذى يوجد فيه ، تلك الجوانب هى بصفة خاصة الجوانب التقنية التى يكلف بأدائها . وانشغاله بالأداء يفقده التبصر بالنتائج المترتبة على عمله (كما يهتم الطيار بالاسلوب التقنى لاسقاط القنابل ، حتى الذرية منها) . وفى التجربة يستغرق المفحوص فى الأسلوب : يقرأ الكلمات المزدوجة بالتفصيل ليستوعبها ، يوجه انتباهه بحرص لاختيار المفتاح الذى يضغط عليه ، يحاول القيام بما كلف به فى كفاءة ، ويتوه التفكير فى الحكم الخلقى .

وربما كان هذا شبيها بما يحدث فى الحياة اليومية ، ينشغل الناس بالأداء لانجاز جوانب معينة فى كفاءة ، ويفتقدون النظرة الكلية للأمور ، فينفذون ببساطة كل ما تأمر به السلطة أياً كانت دون مراجعة .

الثقة فى نبل الغايات : ينزاح التفكير فى الأخلاق حين تتواجد الثقة فى نبل الغايات . إن المفحوص يثق فى الأهداف الموضوعة ، فى الغايات ومن وضعوا الغايات . وهو بالتالى لا يعتبر نفسه مسؤلا عن أفعاله ، وإنما تعود المسؤلية على المجرب الذى يمثل السلطة الشرعية . يرى المفحوص نفسه كأداة لسلطة خارجية لا كشخص يقوم بعمل يتنافى مع المبادىء الخلقية . يؤكد هذا الإجابات التى أدلى بها المفحوصون بعد التجربة فى مقابلات المتابعة ، كانت الاجابات عن سؤال" لماذا داومت ولم تتوقف " اجابات نمطية ، مثل : " لم أكن أفعل ذلك لو كان الأمر بيدى " ، " كنت أنفذ ما يطلب منى وحسب " ، " إنما أقوم بواجبى على النحو المطلوب " ... ، وتلك اجابات

مشابهة لما قدم من حجج اعتذارية في محاكمات نوربرج ، أو في قضايا التعذيب ، لأنها صيغة أساسية لتفكير الكثير من الناس حين يتم ربطهم ببيئة سلطة ما ليكونوا تابعين لها . هنا يتضاءل الاحساس بالمسؤلية ، بل يصل الأمر أحيانا إلي أن يكون الشعور بالفخر أو الخزى علي قدر إنجاز الرسالة وإرضاء السلطة ، قد يشعر الجندي بالفخر حين يحرق قرية ، وقد يشعر المثقف بالسرور حين يتجاوز ما يتشدق به من مباديء الأخلاق ، إذا كان في هذا ارضاء للسلطة .

اضفاء هالات قدسية علي موضوعات إنسانية : كما أن هناك ميلاً بدائياً عند الناس إلى أن ينسبوا للقوى والموضوعات غير الحية صفات النوع الانساني ، فان هناك ميلاً مضاداً إلي إضفاء صفات لا شخصية علي القوى والموضوعات ذات الأصل الإنسانى . فبعض الناس يتعاملون مع ما أنتجه الانسان كما لو كانت أشياء موجودة فى عالم آخر علوي . حين يكون المفحوص في المعمل يشعر أنه في مكان يحمل مظهر الشرعية ، والشرعية مستمدة من العلم وما يحاط به من هالات ، ومن ثم تكتسب التجربة صفة رسمية يطمئن إليها المفحوص ، ويشعر أنه بين أيد أمينة تعرف ما تفعل . لذلك حين يقول المجرب للمفحوص « التجربة تقتضي أن تستمر » ، يشعر المفحوص وكأن التجربة شيء مستقل عن الانسان يشكل عالماً من الحتميات يجاوز قدرته علي التحكم فيه. هو في تلك الحالة لا يسأل : تجربة من ؟ لماذا أخدم المجرب بينما يعاني شخص آخر ؟ صارت رغبة المجرب جزءا من السياق الذي يمارس الضغط على عقل المفحوص . وحين يقال للمفحوص « يجب أن تستمر » ، يختفي لديه الفاعل الانسانى من الصورة ، وكأن كلمة « يجب » هذه تعلو علي إرادة البشر .

ربما يفسر هذا ارتكاب بعض الناس أبشع الجرائم تحت تأثير إمارة السلطة وما يحيط بها من هالات .

اضفاء صفات قبيحة علي الآخرين : حين يجد المفحوص نفسه متورطاً في عملية لا يريدها ، يقوم بالتخفيف من وطأة شعوره بالذنب حيال من يؤذيه بالتقليل من قيمته . وربما يصل في هذه العملية إلي حد تجريده من كل الصفات الطيبة . فالكثير من المفحوصين كانوا يقللون من قدر ضحيتهم مع تزايد ايذائهم . كانت هناك آراء متكررة بهذا المعني ، تعبر عنها عبارات مثل « إنه من الغباء والعناد بحيث يستحق أن يتلقي الصدمات » ، ويعني هذا أن الضحية يستحق فعلاً ما يناله . ويزداد الشعور بالراحة كلما زاد تصور الصفات القبيحة في الضحية .

لهذا يبتكر الإنسان صفات مثل : العدو الخائن ، والغادر ، والفاسق ، والكافر ... ،

كلها كلمات تدعو إلي استخدام أشد القسوة في الحروب بين الدول ، والحروب الأهلية ، والمعارك التي يخوضها الناس ضد بعضهم بعضاً .

تغير الحكم الخلقي بتغير الموقع من السلطة : يزداد مقدار الطاعة إذا جلس الشخص في موضع السلطة أو اقترب منها . حين طلب من بعض المفحوصين أن يقوموا بأدوارهم دون أن يضغطوا علي المفاتيح بأنفسهم ويتركوا تلك المهمة لشخص آخر ، كانت نسبة من استمروا في التجربة أكبر ، إذ استمر ٣٧ شخصاً من ٤٠ إلي آخر مستوي في المولد الكهربائي . كان المفحوصون هنا جزءا من السلطة يحرصون علي بقاء واستمرار التجربة . ولهذا استمرت تلك النسبة العالية إلي النهاية لأنهم يعطون الأوامر وحسب .

وربما يفسرهذا تغير مبادئ بعض الناس بعد توليهم السلطة ، عما كانوا ينادون به من قبل ، إنهم قد يبررون استعمال العنف وشتي الأساليب الأخرى لأنهم قد " عرفوا " المقتضيات العملية التي لم يكونوا يعرفونها ، وشعورهم بأنهم جزء من السلطة يخدر أحكامهم الأخلاقية ، حتي وإن كانوا مجرد كف تضرب به سلطة أكبر .

الاحتجاج بالاستنكار الداخلي: لم يكن المفحوصون يقومون بما طلب منهم في يسر وانصياع تام . لقد احتج الكثيرون وهددوا بالانسحاب ، لكن بين الأفكار والكلمات وبين القدرة علي الفعل توجد هوة ، إذ كان بعض المفحوصين مقتنعين تماماً بخطأ ما يفعلون ، خاصة حين يزداد صراخ واستنجاد المتعلم ، لكنهم لم يستطيعوا تجميع قدراتهم ليتمردوا علي الوضع . وفريق منهم استلهم رضاه من أفكاره وكان يشعر أنه في داخله علي الأقل ، ما زال يقف إلي جانب الملائكة والأبرار . لكن هذا كان مجرد عزاء ، فهذا الشعور الطيب لم يتحول إلي فعل له تأثيره .

من أجل هذا يستمر المستبدون في استبدادهم ، ويخدم الشعور بالاستنكار الذي لا يخرج إلي حيز الوجود في بقاء الوضع علي ما هو عليه .

تلك هي الآليات التي أبقت بعض المفحوصين حتي نهاية التجربة ، وأبقت نسبة أكبر حتي مراحل متقدمة منها . لكن ماذا عن العصيان ؟.

متى يحدث العصيان؟ : بالإضافة إلي أن بعض المفحوصين لم يكملوا التجربة العادية التي كانت تضم مجربا واحداً ومفحوصاً واحداً ، فإن نسبة أكبر من المفحوصين تركت التجربة حين تغيرت اجراءاتها . في بعض التجارب كان هناك مجريان وليس

مجريا واحدا . وعند نقطة معينة كانا يصطنعان الاختلاف حول الاستمرار في التجربة . يؤكد أحدهما أنه من الضروري التوقف لأن المتعلم لم يعد يستطيع التحمل أكثر من هذا ، بينما يؤكد الآخر أنه لا بد من الاستمرار . هنا يكون افتقاد تحديد الموقف الاجتماعي عاملاً علي الخروج من الأوامر ، حيث لا يستطيع المفحوص أن يحدد من الذي يمثل السلطة بالنسبة له فيطيعه .

وربما يفسر هذا انصراف الناس عمن تخلع عنه السلطة إلي القادم الجديد الذي يتولاها ، إذ ليس المهم لديهم الشخص الذي بيده السلطة ، وإنما المهم هو البناء الاجتماعي للموقف ومشروعية من يمثل السلطة فيه ، لأن السلطة ليست مسألة تتعلق بالشخص ، ولكنها تستمد من السياق سواء كان مؤسسة أو جماعة أو غير ذلك .

ويشتد الميل إلي العصيان بتأثير الجماعة ، ويبين هذا التجارب التي اشترك فيها ثلاثة من المفحوصين ، اثنان منهم يتبعان المجرب إلي جانب المفحوص الحقيقي . في لحظة معينة يكف أحدهما عن الاستمرار ، ثم يقوم الآخر محتجاً هو أيضاً بعد برهة . وهذا مما يشجع المفحوص الحقيقي علي الانسحاب ، رغم تعليمات المجرب المشددة . ويعني هذا حاجة الفرد إلي التعزيز من جانب الآخرين في اللحظات الحاسمة للاختيار.

نخلص مما سبق إلي أن الطاعة والعصيان ليسا من عائلة المفاهيم النفسية الخالصة ، وإنما هما يتشكلان حسب صورة المجتمع والأسلوب الذي يحيا به ، وكذلك صورة وأسلوب الموقف الذي يوجد فيه الفرد . من ثم يجب ألا نكتفي بالحكم علي شخص ما بأنه مسالم أو عدواني ، يتصف بالسادية أو بالماسوشية أو ما إلي ذلك من صفات دون رؤية الإطار المرجعي الذي يتمثل في المجتمع والثقافة والموقف . ولا ينفي هذا بطبيعة الحال أن هناك أشخاصاً أكثرعدوانية من غيرهم ، لكن حين نفكر في التاريخ الطويل الكئيب للإنسان ، فسوف نجد الجرائم التي ارتكبت تحت راية العصيان ، أقل كثيرا من تلك التي ارتكبت في ظل الطاعة . وأنماط التبرير واحدة ، سواء كانت الطاعة في العمل ، أو كانت في الحياة العادية .

ذلك البحث إذ يضع أيدينا علي مفاتيح هامة تفسر كثيرا مما يحدث في مجتمعنا في الآونة الأخيرة ، لماذا يرتكب البعض أبشع الجرائم بينما قد لا يحملون أية ميول اجرامية أساسا؟ ما سر قوة تلك التكوينات الاجتماعية الصغيرة التي تعطي الأوامر ، وكيف يمكن تفكيكها بتفكيك مصادر السلطة فيها ؟ ما الأسس التي تقوم عليها مشروعية الأهداف « النبيلة » التي تقف وراء العنف والعنف المتبادل ، وتصور الجميع أن الحق إلي جانبه ؟ .

ثم ؛ نحن في مجتمع الطاعة ، إنها تحتل أعلي مانة في سلم القيم ، من البيت إلي المدرسة إلي العمل إلي الحياة اليومية ، وهي تتخلل نسيج ثقافتنا كلها ، أليست تلك

الطاعة نفسها في ظروف خاصة هي المولد الرئيسي للعدوان ،وتلك الظروف الخاصة لا نقول عنها عوامل مساعدة ، لكنها بالحري عوامل متشابكة مع الطاعة تقف خلف ظواهر الإرهاب ، أفلا يستحق الأمر أن نراجع حياتنا الثقافية لننزع عن الطاعة شيئاً من قوتها ليحل محله التفكير النقدي وأن يكون النقد بلا حدود إلا حدود الضمير الذي يحرص علي ألا يتفكك المجتمع ؟ .

ربما يحفزنا البحث إلي ابداع فنيات لا تكلف الكثير ، تشابه تلك الحيل الذهنية التي قامت عليها التجربة . والمعامل جاهزة لكن في المواقف الحية ، في الفصل والمدرسة وقاعات المحاضرات ، بل في المقاهي أيضاً وأقسام الشرطة ، لنتتبع كيفية تخليق الشخصية التي تأخذالأشياء مأخذ التسليم ،وتعتمد علي غيرها في التفكير لها ، وتعيش في حالة بين ربين ، لا هي متقبلة للطغيان ، ولا هي قادرة علي الافصاح عما تشعر به نحو الطغاة .

ليست الطاعة دائما شيئاً محمودا ، وبلاغة جورج اورويل تعبر عن هذا خير تعبير في عبارة اقتبسها منه الباحث ، يقول اورويل :

« بينما أنا أكتب ، فإن كائنات إنسانية غاية في الحضارة تطير بأعلي لتقتلني . انهم لا يشعرون بأى عداء نحوي كفرد ، ولا أشعر إزاءهم كذلك . إنهم فقط يؤدون واجبهم كما يقال .

معظمهم ، من غير شك عندي ، أناس طيبو القلب مطيعون للقانون ، ولم يفكروا قط في ارتكاب جريمة في حياتهم الخاصة ، ومن ناحية أخرى إن نجح أحد في تفجير جسدي ليطير شظايا بتأثير قنبلة جيدة التصويب، فإنه لن ينام أبداً ...»